بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 25 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:31\01\2023 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

قبل أن نشرع في الآية الجديدة، لا بأس بالوقوف قليلاً عند شبهة طرحناها في البحث السابق، في قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ﴾ كانت الشبهة عبارة على أنه كيف يكون الخوف في هذه الآية من صفات الأبرار، مع أنه في آيات أخرى من القرآن الكريم نفى الباري تبارك وتعالى الخوف على أوليائه وآمنهم من الفزع الأكبر؟ فهل هذا إلا تهافت؟

كان حاصل الإجابة عن هذه الشبهة بالتفريق بين الخوف بمعناه المصدري كفعل وبين نفي الخوف بمعنى أنه لا يقع عليهم ما يخافون منه، فالآيات التي تنفي الخوف وتؤمّن من الفزع الأكبر في يوم القيامة هي في الواقع وعد إلهي بأن هؤلاء لا يصيبهم ما يُخاف به على الناس في يوم القيامة.

وهذه الآية الشريفة التي نبحث عنها ناظرة إلى الخوف كمصدر وكفعل، المؤمن يخاف ويخشى، المؤمن بين حالتي الخوف والرجاء.

وهذا الجواب –في الواقع– له نظائر، فنلاحظ فيما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما يقسم العباد إلى ثلاثة أصناف: عبادة العبيد، وعبادة التجار، وعبادة الأحرار. ويقول علي عليه السلام عن عبادة الأحرار: (مَا عَبَدْتُكَ طَمَعاً فِي جَنَّتِكَ وَلَا خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ)[1] وهذا لا يعني أن أمير المؤمنين عليه السلام لا يخاف، بل يريد أنه لو لم يكن هناك جنة ولا نار مع ذلك لكنت عابداً لله سبحانه وتعالى، فعبادتي له لا لأجل أنه أخاف من عقوبته وأرغب في جنته، وإن كان هو يخاف من العقوبة ويرغب بالجنة، لكن ليست هي الباعث، بل لو لم يكن هناك عقاب وثواب فـ (وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ).

[1] عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، ج1، ص: 404.

القرآن الكريم وأحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام خير شاهد على ذلك، ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[2]. وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام مادحاً لطائفة من الأولياء: (وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ [لَهُمْ] عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ)[3]، والروايات التي تتضمن أن المؤمن بين حالتي الخوف والرجاء فوق حد الإحصاء.

هذا يعني أن الخوف كالرجاء، كفعل من الأفعال، يصدر من المؤمن، في أي طبقة من الطبقات، وفي اي درجة من درجات الكمال كان.

لكن مع ذلك الله سبحانه وتعالى آمنهم من الفزع الأكبر، ومن تلك الأمور التي يُخاف بها على الإنسان في يوم القيامة. فحينئذ لا تهافت بين هذه الآية وبين غيرها من الآيات الآية.

الآية الثامنة، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.

الارتباط السياقي: لا شك أن هذه الآية إذا ألقيت إلى العرف يكون لها معنى واضح عندهم، ولا شك أنهم يرون أن هذه الآية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالآية السابقة. هؤلاء الأبرار ما هي أفعالهم التي أوصلتهم إلى هذه الدرجة من الكمال؟ ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يوماً﴾ ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ﴾. فإذاً الانسجام بين هذه الآية وبينما تقدم عليها واضح عند العرف.

لكن مع هذا الوضوح هناك جملة من المحطات التحقيقية ينبغي أن نقف عندها:

المحطة الأولى: وجه ارتباط بين الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام

ما هو وجه ارتباط بين الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام؟ فقد يقال: الأبرار لهم أفعال برّ كثيرة، أفعال خير وأفعال توجب رضا الرحمن في غاية الكثرة، فلماذا ترك كل تلك الأفعال واختار من بينها الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام؟ فهذا سؤال لا بد من تحقيق الجواب عنه.

---

[2] السجدة: 16

[3] نهج البلاغة (للصبحي صالح)، ص: 303

وبعبارة أخرى ما أشرت إليه قبل قليل مما يفهمه العرف هو الربط العام بين الآيتين، أن الآية السابقة تتكلم عن بعض أفعال الأبرار، وهذه الآية تتكلم عن بعض أفعال أخرى للأبرار. هذا هو الفهم العرفي الساذج.

لكن الخواص لا يرضون بهذا الفهم، فلا بد أن نقول لماذا من بين أفعال الأبرار الكثيرة اختص الباري بالذكر هذين الفعلين، الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام؟

صحيح أن الأفعال وإن كانت كثيرة، لكنها مهما كثرت تصنف في صنفين:

الصنف الأول: يعكس العلاقة بين العبد وخالقه.

الصنف الثاني: يعكس العلاقة بين المخلوق والمخلوق الآخر.

فالإيفاء بالنذر يمثل الصنف الأول، أنه ما أعقده بيني وبين ربي أف به؛ لأني عبد له، والعبد يخاف يوماً كان شره مستطيراً. وإطعام الطعام يمثل في الآخر من العلاقة، العلاقة بين المخلوق والمخلوق الآخر.

الإيفاء بالنذر جمعت كل الأفعال التي من الصنف الأول، منها إقامة الصلاة، الصوم، تمام الواجبات والفرائض. وإطعام الطعام هو أبرز مظاهر الإحسان بين المخلوق والمخلوق الآخر.

ومن هذا المنطلق ذكرت مراراً -ولعلي أشرت إلى ذلك في تفسير سورة لقمان- أن الباري تبارك وتعالى عندما أراد أن يعرّف لنا الولي قال: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ[مظهر للعبودية للعلاقة بين العبد وخالقه] وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ [مظهر للعطف على خلق الله تبارك وتعالى]﴾[4] فجمعت الآية بينهما.

هذا هو الترابط الخاص بين الإيفاء بالنذر وبين إطعام الطعام.

المحطة الثانية: مرجع الضمير في قوله: ﴿عَلى حُبِّهِ﴾[5].

---

[4] المائدة: 55

[5] وهذا ليس مجرد بحث نحوي وأدبي، بل المعنى المستفاد من الآية يتوقف فهمه على تحديد مرجع الضمير.

المتتبع في كلمات علماء التفسير يجد أنهم يطرحون في مرجعية الضمير احتمالات ثلاثة:

الاحتمال الأول: أن يرجع الضمير إلى الطعام. فيكون المقصود من الآية المباركة: ويطعمون الطعام على حب الطعام. والمقصود من حب الطعام عبارة عن توقان النفس إليه للحاجة إليه، فهؤلاء الأبرار من صفاتهم أنهم يطعمون الطعام على حبهم للطعام، أي على توقهم إليه لحاجتهم إليه. هذا محبة حاجته.

الاحتمال الثاني: أن يرجع الضمير إلى الله جل جلاله. يطعمون الطعام على حب الله، أي ليس طمعاً في الثواب ولا خوفاً من العقاب. إطعامهم للطعام خالصاً لوجه الله. وكلمة الله سبحانه وتعالى وإن لم ترد الآية الشريفة لكنها مفهومة من السياق.

الاحتمال الثالث: أن يرجع الضمير إلى الإطعام لا إلى الطعام، إلى الفعل والمصدر، أطعم يطعم إطعاماً. وهذا المصدر الذي هو مرجع للطعام يفهم من قوله: ﴿يُطْعِمُونَ﴾ ويطعمون الطعام على حب الإطعام، بمعنى أن هؤلاء الأبرار يفعلون هذا النوع من الخيرات لحبهم لهذه الخيرات، مثل من يطلب العلم، فمرة يطلب العلم لله، ومرة يطلب العلم؛ لأن هو يحب العلم فيطلبه.

فهذا الفعل وهو الإطعام؛ لكونه فعل خير فهم يحبون هذه الأفعال، فيطعمون الطعام على حبهم لله.

لا شك أن المعنى والنكات واللطائف التي تستفاد من الآية المباركة سوف تختلف باختلاف هذه احتمالات:

فعلى الاحتمال الأول: يكون هؤلاء الذين تصدقوا بالطعام لليتيم والمسكين والأسير في غاية القمة في التصدق؛ لأنهم ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[6] لحاجة، يحتاجون إلى الطعام، هم جوعى فتتوق نفسه إلى الطعام، مع ذلك تبرع بطعامه الذي يحتاج إليه.

تارة الإنسان يعطي شيء لا يحتاج إليه، يذهب إلى خزانة الثياب عنده فلديه أثواب لا يحتاجها فيتصدق بها، وتارة يختار أفضل ثيابه فيتصدق بها. والمرتبة الثانية أعلى من المرتبة الأولى.

---

[6] الحشر: 9

وعلى الاحتمال الثاني: فلا نظر إلى الحاجة، ولا نظر إلى الإخلاص، وإنما النظر إلى أن المؤمن يرغب بالفعل الذي هو من سنخه، فهؤلاء إنما يطعمون لأجل أن الإطعام يعجبهم، أن هذا الفعل من سنخ طبيعتهم.

وعلى الاحتمال الثالث: مع قطع النظر أن هذا الذي فعل الذي يفعلونه من إطعام الطعام، سواء يحتاجون إلى الطعام أم لا يحتاجون إليه، هؤلاء همهم الأول هو رضا الله سبحانه وتعالى.

فإذاً نلاحظ أن النكات التي تترتب في الآية المباركة تختلف باختلاف هذه الاحتمالات، فبالتالي لابد لنا أن نحقق ما هو الظاهر من هذه الآية المباركة.